الفصل الثانى

الحجاج بن يوسف من الطفولة إلى القيادة العسكرية

- الحجاج طفلاً وصبياً وشاباً
- اتصال الحجاج بعبد الملك بن مروان
- الحرب على عبد الله بن الزبير

الحجاج طفلاً وصبياً وشاباً

ثقيف .. أكبر القرى العربية بعد مكة المكرمة .. العام الأربعون هجرياً ..

المغيرة بن شعبة الثقفى يدخل منزله نهاراً فيرى امرأته الفارعة بنـت همام وهى تتخلل[1] فيخرج غضبانـاً ويبعث إليها بطلاقها .. فلما علمت ما فعل ذهبت إليه وقالت له :

(لم بعثت إلى بطلاقى .. هل لشيء رابك منى ؟)

قال لها :

(نعـم .. دخلت عليك فى السَـحَر وأنت تتخللـين .. فإن كنت بـادرت الغداء فأنت شـرهة .. وإن كنت بت والطعام بين أسـنانك فأنت قذرة)

فقالت :

(كل ذلك لم يكن .. ولكننى تخللت من بقايا السواك)[2]

يندم المغيرة أشد الندم ويخرج آسفاً على تسرعه وظنه فى زوجته

(١) أى تخلل ما بين أسنانها ليخرج ما بينها من أذى

(٢) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٠

وبعــد فترة قصــيرة يقابل أحد أصدقائه اسمه يوســف بن أبى عقيل الثقفى فيقول له :

(هل لك إلى خير أدعوك إليه ؟)

قال :

(وما هو ؟)

فقال المغيرة :

(تــزوج الفارعة بنت همام فإنى قــد طلقتها .. وإنها لخليقة أن تأتى برجل يسود)

فتزوجها يوسف ولما بنى بها واقعها وفى نفس الليلة وبينما هو نائم قيل له فى النوم :

(يا يوسف .. ما أسرع ما ألقحت بالمُبير[1])[2]

فكانت ثمــرة زواجهما أحد أكثر الشــخصيات إثارة للجدل فى التاريخ الإسلامى ..

---

(١) المبير هو المهلك كثير الإسراف فى قتل الناس

(٢) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١١٨

كُلَيب ..

أبو محمد ..

الحجاج بن يوسف بن أبى عقيل الثقفى ..

* * *

والدة الحجاج هى الفارعة بنت همام بن عروة بن مسعود الثقفى .. أشرف نساء ثقيف وأكثرهم ثراءاً وحلياً وهى حفيدة الصحابى عروة بن مسعود رضى الله عنه سيد ثقيف فى زمان النبى ﷺ .. فى أحد الأيام وقبل إسلامه وبينما كان رسول الله ﷺ يدعو الناس فى مكة إلى الإسلام استعجب الوليد بن المغيرة من نزول القرءان على النبى ﷺ فقال :

(لو كان ما يقول محمد حقاً لأُنزل القرءان عَلَىّ أو على عروة بن مسعود الثقفى)

فنزلت فيه الآية :

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (الزخرف : ٣١)

فكان رجلاً عظيماً .. شريفاً .. سيداً لقرية عظيمة هى أكبر القرى مع مكة المكرمة .. وفى قصة استشهاده دليلاً أخر على عظمة هذا الصحابى الجليل حيث ألقى الله الإسلام فى قلبه فذهب إلى

رسول الله ﷺ فى المدينة وأسلم على يديه ثم استأذنه أن يعود لقومه ليدعوهم إلى الإسلام فقال له النبى ﷺ :

(إن فعلت فإنهم قاتلوك)

فقال له عروة :

(يا رسول الله .. أنا أحب إليهم من أبكارهم)

و كان فيهم رضى الله عنه مرجواً ومحبباً فكان يطمع فى إسلامهم دون اعتراض لمكانته منهم فلما ذهب وأخبرهم بالخبر ثاروا عليه ونهروه وأسمعوه ما لا يحب فتركهم وذهب إلى بيته عازماً على دعوتهم للإسلام بأى طريقة ممكنة .. حتى إذا ما جاء فجر اليوم التالى توضأ وصعد فوق منزله وأذن للصلاة فما أن سمعته ثقيف حتى خرجت عليه ورموه بالسهام فأصابه سهم وقع بسببه على الأرض فحملوه إلى داره وسألوه :

(ما ترى فى دمك ؟)

قال :

(كرامة أكرمنى الله بها .. وشهادة ساقها الله إلى .. فليس فى إلا ما فى الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم)[1]

(١) الوافى بالوفيات للصفدى – الجزء التاسع عشر – ص ٣٦٠ : ٣٦١

هذا هو نسب الحجاج وهذه هى البيئة التى نشأ بها سنوات عمره الأولى ..

سليل أعلى بيوت ثقيف مكانة .

يعلم جيداً شرف الإمارة ..

يعلم جيداً شرف القيادة ..

* * *

لم يخلو ميلاد الحجاج من الغرابة وإثارة الجدل وهو ما اتسمت به حياته عامة فقد عرف عنه أنه ولد مشوهاً حيث ولد بلا دُبُر واضطروا أن يثقبوا له دُبراً حتى يستطيع قضاء حاجته .. أيضاً رفض الرضاعة من ثدى أمه أو غيرها حتى أعياهم أمره ولم يجدوا حلاً لإطعامه .. فى هذه النقطة هناك رواية رواها ابن خلكان ولا يُعلم مدى صحتها وهى تقول :

إن الشيطان تصور لأهل ثقيف فى صورة الحارث بن كلدة طبيب العرب وأشهر أطباء زمانه[1] فلما مر بهم قال :

(ما خبركم ؟)

(١) بعض الروايات ومنها رواية ابن خلكان ورواية ابن كثير تقول أن الحارث بن كلدة هو زوج أم الحجاج الأول وليس المغيرة بن شعبة

فقالوا :

(بُنى ولد ليوسف من الفارعة .. وقد أبى أن يقبل ثدى أمه أو غيرها)

فقال :

(اذبحوا جَدياً أسود وأولِغُوه دمه[1] فإذا كان فى اليوم الثانى فافعلوا به كذلك .. فإذا كان فى اليوم الثالث فاذبحوا له تيساً أسود وأولِغُوه دمه .. ثم اذبحوا له أسود سالخاً[2] فأولغوه دمه واطلوا به وجهه فإنه يقبل الثدى فى اليوم الرابع)

ففعلوا به ذلك فكان أول ما استساغه الحجاج فى حياته هى الدماء وإذا ما صحت تلك الرواية فإنما كانت دليلاً على ما أصبح عليه الحجاج لاحقاً حيث كان لا يصبر عن سفك الدماء وكان يقول عن نفسه أن أشد لذاته هى سفك الدماء وإقدامه على أمور لا يستطيع غيره فعلها أو سبقه إليها أحد ..[3]

ذلك هو الحجاج طفلاً ..

فماذا عن الحجاج صبياً ؟

---

(١) أى دعوه يستسيغه بأطراف لسانه

(٢) ثعبان شديد السواد

(٣) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٠

سـليم بن عنـز التجيبى .. أحد كبار التابعـين .. رجل زاهد .. عابد .. قاضى مصر فى عهد معاوية بن أبى سفيان .. فى أحد زيارات يوسـف الثقفى إلى مصر جلس فى مسـجدها وكان معه ابنه الحجاج فمر بهم سـليم بن عنز فما أن رآه يوسف حتى قام خلفه فسلم عليه وجلس بين يديه وقال له :

(إنى ذاهب إلى أمير المؤمنين .. فهل من حاجة لك عنده ؟)

قال :

(نعم .. تسأله أن يعزلنى عن القضاء)

فاندهش يوسف وقال :

(سبحان الله .. والله لا أعلم قاضياً اليوم خيراً منك)

ثـم عاد إلى الحجاج مرة أخرى فما أن جلس حتى بادره الحجاج بالسؤال :

(يا أبى .. أتقوم إلى رجل من تجيب وأنت ثقفى ؟)

فقال له :

(يا بنى .. والله إنى لأحسب أن الناس يرحمون بهذا وأمثاله)

قال :

(والله ما على أمير المؤمنين أضر من هذا وأمثاله)

فقال :

(ولم يا بنى ؟)

قال :

(لأن هذا وأمثاله يجتمع الناس إليهم فيحدثونهم عن سيرة أبى بكر وعمر فيُحَقّر الناس سيرة أمير المؤمنين ولا يرونها شيئاً عند سيرتهما فيخلعونه ويخرجون عليه ويبغضونه ولا يرون طاعته)

ثم نظر إليه وأكمل :

(والله لو خلص لى من الأمر شيء لأضربن عنق هذا وأمثاله)

فقال له أبوه :

(يا بنى .. والله إنى لأظن أن الله عز وجل خلقك شقياً)[1]

من تلك الرواية يتضح لنا طبيعة شخصية الحجاج والتى تشكلت فى تلك الفترة بالتأكيد .. ما كان يهم الشاب الصغير هو أن معاوية

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء التاسع – ص ١١٨ : ١١٩

بن أبى سـفيان هو أمير المؤمنـين وأن أمره يجب أن يطاع .. وأن كل معارض لرأيه هو مخرب يريد شـق عصا المسلمين ويجب التصدى له .. وهو لم يقصد بالمعارضين هنا المخالفين فى الرأى فقط وإنما كل من يرى فيهم الحجاج تهديداً – ولو كان غير مقصوداً – مثلما رأى فى تذكير سـليم بن عنز التجيبى بالخلفـاء الأوائل .. كل هؤلاء يجب التعامل معهم بالسيف .. تلك هى فلسفة الحجاج التى سيسير عليها طوال عمره ..

* * *

أمـا عن فترة شـباب الحجاج فقد عاش بجـوار والده يعمل معه محفظاً للقرءان والحديث الشريف بدون مقابل وقد عرف عنه بلاغته وحسـن خطابه وذكائه الشـديد ونبوغه فى حفظ القرءان فكان تقياً ورعـاً يقيم حـدود الله ويقف عندها .. صفـة أخرى لازمت الحجاج وقتها ألا وهى الطموح .. عرف عنه من صغره طموحه الزائد ورغبته فى الوصول لأعلى المناصب وهو ما جعل مهنة محفظ القرءان لا تشبع رغباته ولا تلبى طموحه المتزايد يوماً بعد الأخر ..

ولـد الحجاج فى عام الجماعة الموافـق واحد وأربعين هجرياً مع تـولى معاوية بن أبى سـفيان إمارة المؤمنين والذى اسـتمرت ولايته حتى عام سـتين هجرياً وهذا يعنى أن الحجاج عاش طفولته وصباه

وشـبابه تحت ظل ولايـة معاوية فى مرحلة مسـتقرة تماماً للدولة الإسـلامية .. مرحلـة لا يعتريها الفتن ولا إختـلاف الرأى .. كان أمير المؤمنين إذا أمـر سمع له الجميع واطاع .. كان لهذا أكبر الأثر عليه ورسـخ فى نفسـه مبـدأ مهم وهو أن طاعـة ولى الأمر بخلاف أنها واجبة شرعاً فإنها أيضاً السبيل الوحيد للإستقرار الذى تعيشه الدولة الإسلامية ..

* * *

كثيرة هـى الأحداث التى مرت على الحجـاج .. تفاصيل كثيرة شـكلت فكر وأسـلوب ومنهجيـة الطفل الذى أسمته أمـه كُلَيب .. إسـتقرار عهد معاوية رضى الله عنه .. أخذ البيعة ليزيد ثم ولايته .. معارضة الحسين وبن الزبير .. استشهاد الحسين .. الهجوم على المدينـة ثم الهجوم علـى ابن الزبير فى الحـرم .. انهيار ملك بنى أمية حتى كاد يزول .. ثم نجاح مروان بن الحكم فى اسـتعادة كثير مـن ملك بنى أمية مرة أخرى .. كلها مواقف واختبارات مرت على الحجاج وكان عليه أن يُكّون رأياً ويتخذ قراراً .. وقد اختار أن ينضم لبنى أمية ..

فى عمر الرابعة والعشـرين قرر الحجاج أن يتجه إلى دمشـق .. حاضرة الخلافة الأموية .. متمرداً على واقعه ووظيفته ومعتمداً على

طموحـــه ليصل إلى مبتغاه من الســلطة .. تمرد لم يكن يشــمل محل الإقامـــة أو طبيعة العمل فقط وإنما امتد حتى للإســم .. كُلَيب أطلق على نفسه اسم الحجاج .. وقد كان أقرب ما يكون لشخصيته ..

ستتأكدون من هذا حين تعلمون أن معنى اسم الحجاج هو ..

محطم العظام ..

* * *

إتصال الحجاج بعبد الملك بن مروان

فـى ذلك الوقت كانت الدولة الإسـلامية تتمزق بين عدة أطراف .. عبـد الله بن الزبير الذى يرى كثيراً من المؤرخين أنه كان الخليفة الشرعى وقتها وكان تحت إمرته الحجاز واليمن والبصرة .. ثم مروان بن الحكم وكان تحت إمرته الشـام ومصـر .. ثم العراق وما اعتراها من فتن بقيادة المختار بن عبيد الله الثقفى الذى رفع شـعار يا ثارات الحسين مطالباً بقتل من شاركوا فى قتل الإمام الحسين رضى الله عنه .. ثـم أخيراً الخوارج الذين أرادوا أن تكـون لهم الكلمة العليا دون كل من سبق ذكرهم .. ومن تلك الخريطة يتضح أن عبد الله بن الزبير هو من يخضع لحكمه أغلب ولايات الدولة وبالتالى فحسـمه لمعركته مع بنى أمية مسـألة وقت لا أكثر ونظرياً يعـد هذا أقرب للواقع .. من رأى هذا الرأى أغفل أن أحد أهم ولايات الدولة الإسـلامية وهى العراق كان متنازع عليها وليس لابن الزبير السـيطرة الكاملة عليها خاصة إذا ما اعتبرنا أن العراق لا يمكن أن تحتسب بمفردها فالعراق لا تأتى إلا ومعها ما تلاها من بلاد فارس .. إذاً هناك عاملاً مهماً فى المعادلـة تفقده كل الأطراف وهو عامل السـيطرة على بلاد العراق .. ابن الزبير أدرك هذا .. مروان بن الحكم أيضاً أدرك هذا ..

* * *

جهز عبد الله ابن الزبير جيشـاً بقيادة شقيقه مصعب بن الزبير وأرسله لقتال المختار الثقفى والسيطرة على العراق وبالفعل تم له ما أراد وقتل مصعب المختار وصار عاملاً لابن الزبير على العراق وبهذا صار الأمـر ينحصر بين بنى أمية بقيادة عبـد الملك بن مروان الذى بويع بالإمارة بعد وفاة والده وبين جيش الزبيرين بقيادة مصعب بن الزبير .. عبد الملك بن مروان كان ذكياً واسـع الحيلة وكما اسـتخدم ذكائه فى السيطرة على مصر من قبل استخدمه مرة أخرى فى العراق للقضـاء على مقاومة جيش مصعب بن الزبير .. أرسـل عبد الملك إلى كل وجهاء العراق من قادة مصعب بن الزبير يعدهم ويمنيهم بولاية العـراق إذا ما تخلوا عن جيش مصعب فقبل جميعهم إلا إبراهيم بن الأشـتر النخعى الذى ذهب برسالته إلى مصعب محذراً إياه من غدر أهـل العراق ونصحه بقتل هؤلاء القادة إلا أنه رفض خشـية إنقلاب قبائلهم عليه فنصحه بسـجنهم وتوليه غيرهم فيكون ولاءهم له إلا أنه رفض أيضاً ..

تجهز الجيشـين عند منطقة تسمى دير الجثاليق وظهرت عندها خيانـة قادة أهل العراق لمصعب بن الزبير وبالرغم من هذا فقد كانت معركـة حاميـة الوطيس قتل فيها من جيـش الزبيرين إبراهيم بن الأشـتر النخعى وباقى قادته المتبقين معه وظل مصعب مسـتمراً فى القتال حتى ما بقى معه سـوى سبعة أشخاص فقط وقتل فى النهاية

بعد أن أرسل لأخيه بن الزبير فى مكة بما حدث .. بمقتل مصعب بن الزبير فى العراق دانت العراق وما تلاها لملك بنى أمية وبدا واضحاً أن الجيش الرئيسى لابن الزبير قد هزم ولن يستطيع تجهيز أخر مثله فى وقت قريب .. بهذا لم يتبقى لبنى أمية سوى السيطرة على أرض الحجاز ..

ضمن جيش الأمويين الذى انتصر فى تلك المعركة كان هناك أحد القادة الذى بدأ اسمه فى البزوغ مؤخراً .. قائد اتسم بالشدة بل والقسوة إذا ما شئنا الدقة .. قائد اتسم أداؤه بالولاء التام لبنى أمية ولعبد الملك بن مروان تحديداً .. قائد اسمه الحجاج بن يوسف الثقفى ..

ماذا ؟! .. لا تعرفون كيف وصل الحجاج إلى تلك المكانة ؟

معكم حق .. إذاً لنعد إلى الوراء قليلاً ..

* * *

كما ذكرنا فالحجاج سافر إلى دمشق ولما وصل بدأ فى مراقبة الوضع الداخلى هناك .. لعله بدأ فى بعض أعمال التجارة أو حتى عمل بمهنته السابقة ولكن ذلك لم يطل لأن الحجاج وضع عينه على وظيفة أهم .. من مراقبته للوضع وبصداقته للعديد من أهل دمشق رأى أن أمر الشرطة لا يسير على ما يرام .. على ما يبدو فإن

الأحــداث التى مرت على بنى أمية جعلــت الوضع الداخلى عندهم فيه بعض الإهتراء .. أفراد الشرطة كان أغلبهم إن لم يكن كلهم غير مســتقيمون .. الأمن الداخلى به بعض القصور .. الإنحلال والتسيب كانــوا سمة واضحة فيهم على الرغم من وجوب الإلتزام لمن يعمل فى هذه الوظيفة .. رأى الحجاج فى هذا فرصته التى ســافر أساســاً من أجلها فبدأ فى إيصال أمر أفراد الشرطة المستهترين إلى أسماع القادة الكبار حتى وصل إلى روح بن زنباع الجذامى أحد وزراء عبد الملك بن مروان وصاحب شــرطته فاعجب روح بحماس الشــاب وقام بتعيينه فى أحد مناصب القيادة فى الشرطة ..

الحجاج استغل هذا أفضل استغلال ممكن وبالفعل ضبط أمور فرقة الشرطة التى رأسها فى وقت قياسى فاعجب به روح بن زنباع بشدة ونال ثقته أكثر مما سبق .. استمرت الظروف فى خدمة الحجاج حين كان روح بن زنباع عند عبد الملك بن مروان فى أحد المرات فاشتكى له عبد الملك إنحلال عسكره وكيف أنهم لا ينزلون بنزوله ولا يرحلون برحيله وفى هذا سوء أدب فى حق الخليفة حيث كان بعضهم يقصر فى مهام التأمين والحراســة فيأتون متأخرين عنه أحياناً ويرحلون بعد رحيله فى أحيان أخرى .. عندها قال له روح :

(إن فى شــرطتى رجلاً لو قلده أمير المؤمنين أمر عســكره لأرحل الناس برحيله وأنزلهم بنزوله يقال له الحجاج ابن يوسف)

فقال عبد الملك بن مروان :

(فإنا قد قلدناه)

فأصبح لا يتخلف أحدهم عن النزول أو الرحيل إلا فرقة روح بن زنبـاع إعتماداً منهم على منصب روح وقربه من عبد الملك بن مروان وهو ما أغضب الحجاج كثيراً فمر عليهم يوماً بعد أن رحل عبد الملك بن مروان و كانوا يأكلون فقال لهم :

(ما منعكم أن ترحلوا برحيل أمير المؤمنين ؟)

فقالوا له :

(انزل يا ابن اللخناء[1] فكل معنا)

قال لهم :

(هيهات .. ذهب ما هنالك)

ثم أمر رجاله بالقبض عليهم فجلدوهم وطاف بهم على باقى فرق الشـرطة وأمر بفسـاطيطهم[2] فأحرقها فلما وصل الخبر إلى روح بن زنباع ذهب إلى عبد الملك بن مروان غضباناً حزيناً وقال :

(١) سبة بمعنى يا ابن المُنتِنة

(٢) خيامهم

(يــا أمير المؤمنــين .. إن الحجاج الذى كان فى شــرطتى ضرب غلمانى وأحرق فساطيطى)

فقال :

(على بـه)

فلما دخل عليه قال له :

(ما حملك على ما فعلت ؟)

قال مندهشاً :

(أنا ما فعلت)

قال عبد الملك وقد اصابته الدهشة :

(ومن فعل ؟)

قال :

(أنــت فعلت .. إنما يدى يدك .. وســوطى ســوطك .. وما على أمير المؤمنين أن يخلف لروح عوض الفسطاط فسطاطين وعوض الغلام غلامين ولا يكسرنى فيما قدمنى له)[1]

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان لابن خلكان – الجزء الثانى – ص ٣٠ / ٣١

فاعجب عبــد الملك بذكاء الحجاجِ وقــام بتعويض روح بن زنباع ومنذ تلك اللحظة تقدم الحجاج كثيراً عند عبد الملك بن مروان ..

* * *

بعــد فترة علم عبــد الملك بن مروان أن جيــش مصعب بن الزبير ينوى الخروج إلى دمشق فخشى على ملك بنى أمية و أراد جمع أكبر عدد ممكن من أهل الشــام لغزو مصعب فى العراق قبل أن يغزوه هو وكان أهل الشام فى ذلك الوقت قد أصابهم التكاسل فلما رأى الحجاج منــه حيرة فى كيفية حــث الناس علىِ القتال طلب منه أن يُســلطه عليهم فلم يجد عبد الملك بن مروان بداً من ذلك وأطلق يده عليهم ..

اســتغل الحجاج الصلاحية التى منحها له عبــد الملك بن مروان فخرج على الناس بملامح صارمة وصاح بهم :

(إن أمــير المؤمنين عبد الملك بن مروان خــارج لقتال مصعب بن الزبير فى العراق وقد أولانى أمركم .. وإنى أمهلكم ثلاث .. وايم الله أيمــا رجل وجدته قادراً على حمل الســلاح ولم يخرج لأقتلنه .. ثم لأحرقن داره .. ثم لأنتهبن ماله)[1]

(١) طاغية بنى أمية لمنصور عبد الحكيم – ص ٨٩

ثــم أمر المنادى أن يمر على الناس يخبرهم بالخبر وانتظر مرور الثلاثــة أيام ثم طاف بالبيــوت باحثاً عمن تخلــف وذهب إلى أحد المعترضين عليه كان يعلم أمره مسبقاً فقتله .. فما أن علمت الناس أن الحجاج نفذ وعيده إلا وخرج الجميع ولحقوا بعداد الجيش وما بقى منهم أحدٌ فى بيته ..

* * *

الحرب على عبد الله بن الزبير

بعد استتباب الأمر لعبد الملك بن مروان فى العراق والشام ومصر بدأ يفكر فى الخطوة القادمة ألا وهى إقصاء عبد الله بن الزبير رضى الله عنه من ولاية الأمر فى الحجاز واليمن .. المناوشات بينهم لم تنقطع منذ توليه الأمر فى الشام .. كل ما هناك أنه حان وقت الإنتهاء من هذا الأمر .. عبد الملك بن مروان منذ بداية توليه أمر الشام وهو يرسل جيوش أو فرق عسكرية إلى المدينة المنورة إما رغبة فى إشغال بن الزبير وإما بغرض إظهار السيطرة على الأراضى التى تقع ضمن نطاق سيطرة ابن الزبير ..

فى المواجهة الاولى أرسل عروة بن أُنَيف فى ستة آلاف جندى فعسكر خارج المدينة واستمر بها شهراً ولم يبعث له ابن الزبير أحداً لمواجهته ..

فى المواجهة الثانية أرسل عبد الملك ابن الحارث فى أربعة آلاف فهرب عامل ابن الزبير على خيبر واسمه سليمان بن خالد الزرقى فتبعته فرقه لعبد الملك حتى أمسكوه وقتلوه فلما علم ابن الزبير بمقتله أرسل فرقة من ستمائة وأربعون فارساً استطاعت الثأر لسليمان وقتلت قاتليه ..

بعدها أرسل عبد الملك بن مروان أحد رجاله يدعى طارق بن عمرو

ليمنع قوات ابن الزبير من التكتل فالتقته فرقة فرسان ابن الزبير ولكنهم هزموا أمامه وتراجعوا انتظاراً للمدد فأمدهم ابن الزبير بألفى فارس كان قد أرسلهم عامله على البصرة لكنهم فشلوا فى إلحاق الهزيمة بالأمويين وقتل منهم عدد كبير ..[1]

* * *

من السابق يتضح أن عبد الله بن الزبير فقد بهزيمة أخيه مصعب فى العراق الرافد الأساسى له لمواجهة الأمويين على مستوى العدد وحتى على مستوى الكفاءة القتالية ففى كل المعارك الجانبية التى سبق ذكرها كانت فرق ابن الزبير أقل عدداً وأقل مهارة قتالية وهو ما كان يغرى عبد الملك بن مروان فى الحشد لإنهاء سيطرة ابن الزبير على الحرمين فقرر أن يرسل جيشاً إلى مكة وعرض الأمر على عامة قادته فرفضوا جميعاً قيادة ذلك الجيش .. هو فى النهاية عبد الله بن الزبير ومكانته معروفة للجميع وجميعهم على علم أنه لن يستسلم بعد كل ما حدث وأن القائد الذى سيخرج على الجيش لابد وأن يكون جريئاً بشكل كبير ليتحمل وزر قتل رجلاً مثل عبد الله بن الزبير .. كلهم رفضوا إلا واحد .. الحجاج بن يوسف يقدم فروض الطاعة مجدداً ويستغل كل الفرص التى تتاح أمامه ..

* * *

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٣٤٧/٤ – ص ٥٩٦

رأى الحجـــاج أن كل القادة تتراجع عن قيـــادة ذلك الجيش فقام وقال لعبد الملك بن مروان :

(يـــا أمير المؤمنين .. إنى رأيت فى منامى أنى أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فابتعثنى إليه وولنى قتاله)[1]

فوافق عبد الملك على طلبه وأرســـله فى ألفـــى فارس وأعطاه أماناً لابن الزبير ومن معه إن رأوا أن يستسلموا .. خرج الحجاج بالجيش الصغـــير ونـــزل بالطائف مســـقط رأســـه ولم ينزل بالمدينـــة وبدأت المناوشـــات بعـــد وصوله بفترة وجيزة إذ كان الحجـــاج يبعث بفرقة من فرســـانه إلى جبل عرفة ليتحروا الأمـــر فيبعث بن الزبير بفرقه مقابلة فيتقاتلا فتنهزم خيل بن الزبير وتظفر خيل الحجاج واستمر هذا الوضع فترة من الزمن ورأى الحجاج من نتائج تلك المناوشات أن البقاء على هذا الوضع لن يحسم الأمر وسيطول هذا الأمر دون نتيجة فرأى أن يبعث لعبد الملك بن مروان يطلعه بما حدث ويســـتأذنه فى حصـــار بن الزبير فى الحـــرم وهو ما تم الموافقة عليه فى النهاية مع دعم الحجاج بخمسة آلاف فارس إضافى وهم جيش طارق بن عمرو ..

* * *

(١) تاريخ الطبرى – الجزء السادس – ص ١٧٤

حصار بن الزبير فى مكة استمر ستة أشهر وسبعة عشر يوماً حسب أشهر الروايات[1] استخدم فيها الحجاج كل الطرق الممكنة لإجباره على الإستسلام .. أتى مكة ومعه خمسة مجانيق[2] فنصبها على الجبال وبدأ فى رمى ابن الزبير وأصحابه بالحجارة فأصابت الحجارة خلقاً كثيراً وأحجم الناس عن الطواف بالكعبة وكان ممن خرجوا للحج فى هذا العام عبد الله بن عمر فأرسل للحجاج قائلاً :

(اتق الله واكفف هذه الحجارة عن الناس فإنك فى شهر حرام وبلد حرام وقد قدمت وفود الله من أقطار الأرض ليؤدوا فريضة الله ويزدادوا خيراً .. وإن المنجنيق قد منعهم عن الطواف فاكفف عن الرمى حتى يقضوا ما يجب عليهم بمكة)

فأوقف الحجاج رمى الحجارة حتى انتهى موسم الحج ثم نادى فى الناس :

(انصرفوا إلى بلادكم فإنا نعود بالحجارة على بن الزبير الملحد)[3]

* * *

(١) قيل خمسة أشهر وسبعة عشر يوماً وقيل ثمانية أشهر وسبعة عشر يوماً

(٢) آلة حربية تقذف الحجارة والمفرد منجنيق

(٣) تاريخ المقريزى الكبير – الجزء الثالث – ص ٢٩

على الرغم مما فات فإن عبد الله بن الزبير لم يستسلم وأصر على القتال للنهاية وهو ما جعل الحجاج ينتقل إلى المستوى التالى .. الحصار .. ركز قواته على الجبال المحيطة بمكة .. قطع الطرق .. إحتل الشعب والوديان .. منع الطعام والمياه من الوصول لأهل مكة فشرب أهلها من بئر زمزم واستنفذ بن الزبير كل الحبوب التى كان قد خزنها فى بيته لإطعام الناس .. انتشر الغلاء فى مكة وأصاب الناس مجاعة حتى وصل الأمر بابن الزبير أن يذبح فرسه ليوزعها فى أصحابه .. بيعت الدجاجة بعشرة دراهم وبيع مُد الذرة[1] بعشرين درهماً .. هل من جديد ؟ .. لا .. ابن الزبير لازال مستمراً فى القتال إلى النهاية ..

* * *

بالتوازى مع الحصار عاد الحجاج لضرب مكة بالمجانيق مرة أخرى ومع الرمى كان الحجاج يأمر قواته بالهجوم على ابن الزبير فكان يقف لهم مع أصحابه ويصدهم خارج الحرم مرة أخرى .. وبينما كان جند الشام يرمون بالمنجنيق رعدت السماء وبرقت وعلا صوت الرعد فخاف الجند منه وتركوا الرمى فغضب عليهم الحجاج وصار يحمل الحجارة بنفسه ويرمى بها حتى إذا ما أصبحوا جاءتهم صاعقة فقتلت من أصحاب الحجاج إثنى عشر رجلاً فانكسر الجند

(١) حوالى ٥٥٠ جرام

وتراجعوا فلما رأى الحجاج ذلك صاح بهم :

(يا أهل الشام .. لا تنكروا هذا .. فإنى ابن تهامة وهذه صواعقها .. وهذا الفتح قد حضر فأبشروا)[1]

فلم يتجاوبوا جميعهم خاصة أن الصاعقة أحرقت منجنيقاً لهم فرأى الحجاج منهم تهاوناً وتراجعاً فصاح بهم :

(ويحكم .. ألم تعلموا أن النار كانت تنزل على من كان قبلنا فتأكل قربانهم إذا تقبل منهم ؟ .. فلولا أن عملكم مقبول ما نزلت النار فأكلته)

وخدمته الظروف حين أتت صاعقة أخرى فى اليوم التالى فقتلت عدداً من أصحاب ابن الزبير فاستغل الحجاج ذلك وقال لأصحابه :

(ألم أقل لكم إنهم يصابون مثلكم وأنتم على الطاعة وهم على المخالفة)

ومسألة الطاعة هى ما كان يعتمد عليه الحجاج بالأساس فقضية الطاعة لولى الأمر كانت أولى أولوياته وكان يظن أنه مأجور على أفعاله وكان دائماً ما يحث جنوده بقوله :

(يا جند الشام .. الله الله فى الطاعة)

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٣٥١/٤ – ص ٥٩٧

فكان عبد الله بن الزبير رضى الله عنه بالنسبة إلى الحجاج مجرد شخص فارق الجماعة وأراد شق عصا المسلمين فتضعف قوتهم ولم يكن أبداً ينظر إليه على أنه الخليفة الشرعى الذى بايعته كل أقطار المسلمين ما عدا الشام الذى يقف الحجاج الآن على رأس جيشه .. منطق مغلوط هذا الذى آمن به الحجاج إذ أنه رأى ابن الزبير خارجاً على طاعة الخليفة على ما كان من بيعة الناس له ولم يرى فى بنى أمية خارجين على طاعة الخليفة رغم أن من بايعهم بعض أهل الشام فقط .. الأعجب أن هذا المنطق سرى بين جند الشام أيضاً وآمنوا به فكانوا يقولون :

(يا ابن الزبير طالما عصيكا[1] وطالما عنيتنا إليكا لتُجزين بالذى أتيكا[2])

* * *

استمر حصار الحجاج لمكة واستمر معها قذف الحجارة على من فيها فتأثرت الناس من شدة الحصار وبدأوا فى الخروج إلى الحجاج طالبين الأمان منه وبدأت الناس تتخلى عن ابن الزبير تدريجياً .. تخلى عنه غالبية الناس حتى ابناه حمزة وخُبيب .. قيل أن من

(١) عصيت
(٢) أتيت به

تخلـى عنه كانوا قرابة العشـرة آلاف .. فلمـا رأى ابن الزبير ذلك ذهب لأحد أولاده وكان اسمه الزبير وقال له :

(خذ لنفسك أماناً كما فعل أخواك .. فوالله إنى لأحب بقاءكم)

فقال :

(ما كنت لأرغب بنفسى عنك)

فلما رأى أصحاب الزبير ذلك قالوا له :

(ألا تكلمهم فى الصلح ؟)

قال :

(والله لـو وجدوكم فى جـوف الكعبة لذبحوكـم جميعاً .. والله لا أسألهم صلحاً أبداً)

ثم دخل على أمه أسماء بنت أبى بكر وقال لها :

(يـا أمـاه .. قد خذلنى الناس حتى ولـدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسـير ومن ليس عنده أكثر من صبر سـاعة والقـوم يعطونى ما أردت من الدنيا .. فما رأيك ؟)

فقالت رضى الله عنها :

(يا بنى .. أنت أعلم بنفسك إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل عليه أصحابك .. ولا تمكن من رقبتك يلعب بهـا غلمان بنى أمية .. وإن كنت تعلم أنك إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت .. أهلكت نفسـك وأهلكت من قتل معك .. وإن كنت على حق فما وهن الدين .. وإلى كم خلودكم فى الدنيا ؟ .. القتل أحسن)

فقبل رأسها وقال :

(هـذا والله رأيى .. والله ما ركنـت إلى الدنيا ولا أحببت الحياة فيها وما دعانى إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمته ولكننى أحببت أن أعلم رأيك فزدتينى بصيرة مع بصيرتى .. فانظرى يا إماه فإنى مقتول فى يومى هذا فلا يشتد حزنك وسلمى لأمر الله فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر .. ولا عمل بفاحشـة قـط .. ولم يَجُرْ فى حكم الله .. ولم يَغْـدرْ فـى أمان .. ولم يتعمد ظلم مسـلم ولا معاهد .. ولم يبلغنـى ظلم عن عامـل فرضيته بل أنكرته .. ولم يكن عندى آثر من رضى ربى عز وجل)

ثم أكمل :

(اللهم إنى لا أقول هذا تزكية لنفسى .. اللهم أنت أعلم بى منى ومن غيرى ولكنى أقول ذلك تعزية لأمى لتسلو عنى)

فقالت :

(إنى لأرجو من الله أن يكون عزائى فيك حسناً .. إن تقدمتنى أو تقدمتك ففى نفسى .. اخرج يا بنى حتى أنظر ما يصير إليه أمرك)

فقال :

(جزاك الله يا أماه خيراً فلا تدعى الدعاء قبل وبعد)

فقالت :

(لا أدعــه أبــداً لمن قتل على باطل فلقد قتلــت على حق .. اللهم ارحــم طول ذلك القيام وذلك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة وبــره بأبيــه وبى .. اللهم إنى قد سـلمته لأمرك فيــه ورضيت بما قضيت فقابلنى فى عبد الله بن الزبير بثواب الصابرين الشاكرين)

ثــم ضمتــه إليها لتودعه فشــعرت بأنه يرتدى درعــاً من حديد فقالت:

(يا بنى .. ما هذا لباس من يريد ما تريد من الشهادة)

فقال :

(يا أماه .. إنما لبسته لأطيب خاطرك وأسكن قلبك به)

فقالت :

(لا يا بنى ولكن انزعه)[1]

فنزع درعه وساوى ملابسه وتحفظ فى ملبسه من أسفل حتى لا تنكشف عورته إذا ما مات وخرج على أصحابه فصلى بهم ثم استدار لهم وقال :

(اكشفوا وجوهكم حتى أنظر إليكم)

و كانوا يلبسون المغافر[2] .. فلما نزعوها قال لهم :

(يا آل الزبير .. لو طبتم بى نفساً عن أنفسكم كنا أهل بيت من العرب اصطلحنا فى الله .. فلا يرعكم وقع السيوف .. فإن ألم الدواء للجراح أشد من ألم وقعها .. صونوا سيوفكم كما تصونون وجوهكم .. غضوا أبصاركم من البارقة وليشغل كل امرئ قرنه .. ولا تسألوا عنى .. فمن كان سائلاً عنى فإنى فى الرعيل الأول[3] .. احملوا على بركة الله)

فقال له بعض أصحابه :

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير – الجزء الثامن – ص ٣٣٠

(٢) المغافر درع على قدر الرأس ليحميه أثناء المعارك

(٣) أى من السابقين

(لو لحقت بموضع كذا)

يقصدون أن يهرب من مكة فيركن إلى فئة ينصرونه .. فقال لهم :

(بئس الشيخ أنا إذاً فى الإسلام لئن أوقعت قوماً فقتلوا ثم فررت عن مثل مصارعهم)

ثم خرج فقاتل قتالاً عنيفاً وكان شيخاً فى الثانية والسبعين من عمره وقد روى عنه أنه كان بارعاً فى القتال تفوق براعته من هم فى عمر الشباب وكان ذا هيبة ووقار فكان جند الشام يحملون عليه فيصدهم وحده لبراعته ولهيبته فى نفوسهم .. قيل فى وصف شجاعته أنه كان يصلى عند الكعبة وقت الحصار فكانت حجارة المنجنيق تقع قربه فلا يتأثر بها .. كان الحجاج يأمر بقذف الحجارة فتسقط بجانبه حتى إنها لتأخذ طرف ثوبه فلا يهتز منها أو يفزع .. كان يهجم وحده على فرق أهل الشام وكان بها قرابة الخمسمائة مقاتل فيجبرهم على التراجع والخروج من باب الحرم ..

* * *

استمر القتال على هذه الحال فلما شعر الحجاج بإحجام جنوده عن قتال بن الزبير جعل يسير بينهم ويدفعهم دفعاً لقتاله ووسط كل ذلك إذا بأحد أحجار المنجنيق تصيبه فى رأسه فارتعش جسده من قوة الضربة وسال الدم من رأسه فسقط على الأرض وهو يقول :

(فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا .. ولكن على أقدامنا تقطر الدما)

فحاول النهوض فلم يستطع فاتكأ على مرفقه الأيسر وهو يضرب بالسيف كل من حاول الإقتراب منه فجاءه رجل من أهل الشام فضربه بالسيف فقطع رجله وعندها تكاثر القوم عليه فقتلوه وحزوا رأسه وأوصلوها للحجاج فلما رآها سجد على الأرض ودخل إلى الحرم وبرفقته طارق بن عمرو حتى وصلوا إلى جثمانه فقال طارق بن عمرو :

(ما ولدت النساء أذكر من هذا)

فقال الحجاج :

(تمدح من يخالف طاعة أمير المؤمنين ؟)

قال :

(نعم .. هو أعذر لنا .. ولولا هذا لما كان لنا عذر .. لأنا محاصروه وليس هو فى حصن ولا خندق ولا منعة ينتصف منا بل يفضل علينا فى كل موقف)[1]

(١) الكامل فى التاريخ لابن الأثير – ٣٥٤/٤ ص ٥٩٨